كليوباترا

ملكـــة القـــلوب

الحب .. ذلك الإحساس الغامض الذى نشعر به ، ولا نعـرف وصفـه ، هل الحب يصنع المعجزات ؟ هل يدفع بشعوب وملوك وجيوش إلى حروب لا حاجة لها إلا إرضاء المحبوب ، سنعرف الإجابة من خلال قصة خالدة تناقلتها الأجيال عبر القرون وأصبحت تدرس فى المدارس والجامعات ، بل إن الكاتب العالمى شكسبير أخذ من هذه القصة مادة لكتابة قصته الشـهيرة "أنطونيو وكليوباترا " .

ليس فى العـالم مـن لا يعـرف " كليوبـاترا " تلـك الملكـة المصريـة التـى استطاعت بجمالها وذكائها أسر ملوك وعظماء وإخضاعهم لها وتنفيذهم لـما تتمنى، بل والخوض فى معارك حربية غيرت تاريخ العالم من أجلها .

لم تكن كليوباترا امرأة شريرة أو خبيثة كما ظـن بعـض المؤرخـين وإنمـا كانت أكثر النساء ذكاء ووطنية ، وربما كانت أعظم ملكة عاشت على وجه الأرض !

تنتمى كليوباترا للأسرة ٣٢ وهى أسرة البطالمة ، فهى ابنة بطليموس أوليت، واجهت كليوباترا صعوبات شديدة لم تستطع مواجهتها بمفردها ، فقد تآمر عليها أخوها وهربت خارج البلاد ، تبحث ، وتفكر كيف ترجع إلى مصر وتكون هى ملكة مصر !

إن الدفاع عن مصر وتخليصها من الوحش الرومانى الذى كان يستحوذ على معظم بلاد العالم فى ذلك الوقت أمر عسير ، وصعب على فتاة فى السابعة عشرة من عمرها بالإضافة إلى تآمر أخيها والمعارضة الشديدة التى تواجهها فى بلادها.

فكرت ولم تجد إلا مقابلة يوليوس قيصر القائد الرومانى العظيم ، الذى حقق انتصارات جعلت منه بطلاً عظيمًا ، ويعتبر يوليوس قيصر من أشجع الساسة فى التاريخ ، ومن أكثرهم موهبة. رفض يوليوس قيصر مقابلة كليوباترا عدة مرات ، لأنه كان يرى أن وقته أثمن من أن يضيعه مع هذه الفتاة المصرية الصغيرة .

وجدت " كليوباترا " طريقة لمقابلة " يوليوس قيصر " ، فجاءت برجال حملوها ملفوفة فى سجادة وطلبوا مقابلة " يوليوس قيصر " لإهدائه هذه السجادة الشرقية وعندما دخلوا إلى القاعة التى يجلس فيها " يوليوس قيصر " خرجت كليوباترا من السجادة لتبهر القائد العظيم الذى لم ير - على حد قوله - أرجح منها عقلاً ولا أقوى فطنة ، وجد أن هذه الفتاة الصغيرة مبهرة وساحرة إلى حد كبير ، سرقت كليوباترا قلب بطل روما العظيم !

بدأ يوليوس قيصر بمساندة " كليوباترا " وقرر أن يعيد لها عرش مصر ، ثار أهالى الإسكندرية على " يوليوس قيصر " واستعادوا الجيش الذى كانوا أرسلوه إلى " بيلوز " لمحاربة " كليوباترا " . فلما رأى " يوليوس قيصر "

ذلك أمر بإحراق الأسطول المصرى ، وامتد الحريق إلى أرصفة المدينة ، والتهم جزءًا منها، كما التهم دار الكتب المشهورة ، وكانت تحتوى على آلاف الكتب ، وكان هذا سنة ٤٨ ق.م ، عاصر المصريون " يوليوس قيصر " فى مدينة الإسكندرية " عاصمة مصر فى ذلك الوقت "، والتحم الجيشان فى موقعه غرق فيها بطليموس الرابع عشر " شقيق كليوباترا " وانتصر " يوليوس قيصر " ودخل مصر ، وأعلن اعتلاء كليوباترا عرش مصر ، وزوجها " بطليموس الخامس عشر " " البالغ من العمر ١٠ سنوات " لتفادى نزاعات أخرى على عرش مصر.

وهكذا أصبح " قيصر " وجنوده وسيلة " كليوباترا " لتحقيق ما فقدته، واعتلت " كليوباترا " العرش ، تساندها روما بدلاً من مناهضتها ، فقيصر لم يأخذ من خير وثروة مصر لفائدة شعب روما ، أو حتى أنصاره السياسيين، ولكنه زج بنفسه وبجيشه فى حرب لا حاجة به إليها ، ولكن كيف يتردد وفى ذلك مرضاة لحبيبته الفاتنة " كليوباترا " .

استقرت " كليوباترا " تحكم مصر تحت حماية روما و " يوليوس قيصر"، ولكن فى يوم ١٥ مارس ٤٤ ق.م قتل " يوليوس قيصر " على يد "بروتوس " وأعوانه بعد أن استبد بالسلطة فى روما وفى الإمبراطورية الرومانية بأسرها فانتهزوا فرصة دخوله مجلس الشيوخ فى روما وطعنوه طعنات أودت بحياته.

كان على كليوباترا أن تعيد الكرة للحفاظ على عرشها ، فكانت بداية قصة الحب الخالدة " أنطونيو وكليوباترا " .

عندما تولى " أنطونيو " حكم روما طلب مقابلة " كليوباترا " فذهبت لمقابلته فى موكب مبهر ، وما إن رآها حتى وقع فى حبها ، بادلته هى

نفس الشعور، أحبته كثيرًا ولم يبخل هـو عليـها بـأى شـىء ، وأكملـت " كليوباترا " مع "أنطونيو " مشوارها السياسى والعاطفى معًا .

ولكـن أنطونيـو قـرر الـزواج مـن فتـاة فـى رومـا ، بـالرغم مـن حبـه "لكليوباترا"، وعندما علمت " كليوبـاترا " غضبـت غضبًـا شـديدًا ، لأنـها كانت تسعى للزواج منه ، إلا أن الحب كان قـد تملـك قلـب " أنطونيـو " فترك بلده وزوجته وأهلهما وسافر إلى الشرق وسحر " كليوباترا " .

فى ذلـك الوقـت كـانت الإمبراطوريـة الرومانيـة تتوسـع بصـورة مذهلـة وشملت معظم أقطار العالم ، فأهدى " أنطونيـو " لحبيبتـه جبـال لبنـان ، وجزيرة قبرص، وشاطئ فينيقيا وبلاد فلسطين .

فى سنة ٣٤ ق. م قام " أنطونيو " بغزو بلاد الأرمـن ، وأقـام مـهرجانًا كبيرًا احتفالاً بانتصاراته ، وعقب الحفلة أهدى " كليوباترا " لقب " ملكـة الملوك " .

ضحى " أنطونيو " بأهله ومصالح بلده من أجـل حبيبتـه ، فـأصبح لـه أعداء فى روما ، وعلى رأسهم " أوكتافيوس " شقيق زوجته الرومانية. أثـار "أوكتـافيوس" رومـا بأسـرها ضـد " أنطونيـو " واتهمـه بأنـه يتعمـد نقـل الإمبراطورية الرومانية من رومـا إلى الإسـكندرية ، كمـا اتهمـه أيضًـا بنقـل آلاف الكتب من روما إلى الإسـكندرية تعويضًـا عـن الكتـب التـى احـترقت أثناء الثورة ضد " يوليوس قيصر " .

ومما زاد سخط أهل روما خبر تطليق زوجته " أوكتافى " ، وعنـد ذلـك أعلن "أوكتافيوس " الحرب على ملكة مصر ، فاستعد " أنطونيـو " للدفـاع عن مصـر ، وملكـة مصـر حبيبتـه كليوبـاترا ، فكـانت موقعـة " أكتيـوم "

البحرية وشهدت "كليوباترا " هذه الموقعة الهائلة وهى على ظـهر سـفينتها (L'Antoniade) وانتهت هذه الموقعة بهزيمة " أنطونيو " .

ولولا مجازفة " كليوباترا " بأسطولها ، وإصرارها على محاربـة الرومـان فى البحر والبر معًا ، ولولا أن " أنطونيو " كـان عاشقًا أكـثر منـه جنديـاً كانت "كليوباترا " وهى سيدة العالم أجمع !

وبعد موت " أنطونيو " شعرت " كليوباترا " بالضياع واليأس ، فارتدت أعز أثوابها ،وتزينت بأثمن حليها ، ووضعت على صدرها الحية المشـهورة وبذلك انتقلت الملكة العظيمة فى سن الـ ٣٩ من عالم الكفـاح والطمـوح فـى الدنيا إلى عالم التاريخ ، وبموتها وقعت مصر فى قبضة الرومانيين .

حاول المرحـوم " أحمـد شـوقى " أمـير الشـعراء أن ينقـذ كليوبـاترا مـن الاتهامات التى دارت حول " كليوباترا " علـى ألسـنة المؤرخـين ، فوضـع روايته الشهيرة "مصرع كليوباترا " وفيها يجرى هـذه الأبيـات علـى لسـان الكاهن الأكبر فى تمجيد " كليوباترا " بعد موتها :

بنتـى رجوتُـك للضحيـة والفـدا فوجدتُ عندك فوق ما أنا راجـى

إن تصبحـى جسدًا فنفسـك حـرة وعـلاك سـالمة وعرضـك نـاج

سيقول بعد كل جيل منصـف ذهبت ، ولكن فى سبيل الـتاج

وهناك أيضًا العالم والمؤرخ الكبير " جيمـس كيمبـل " الـذى يدافـع عـن كليوباترا ويقول :

" لم تكن كليوباترا امـرأة شـريرة وإنمـا كـانت مـن أكـثر النسـاء ذكـاء ووطنية ، وربما كانت أعظم ملكة عاشت على وجـه الأرض ، ولاشـك فـى أنه لم تلحق قط إساءة بملكة بقدر ما أسىء إليها ونيل منها ! ".